الحلقة (١٩)

تحدثنا في الحلقة الماضية عن أهم المصطلحات في مذهب الإمام أحمد، والآن نكمل هذه المصطلحات، وذكرنا:

الوجه وقلنا هو: قول بعض أصحاب الإمام أحمد وتخريجه إن كان مأخوذ عن إيماءات الإمام وإشاراته وأفعاله أو سياق كلامه، وهو مجزوم بجواز الفتيا به، وإذا قيل فيه وجه فالأشهر خلافه.

أما التخريج: فهو نقل حكم مسالة إلى ما يشابهها والتسوية بينهما فيه.

أما الاحتمال: فقلنا هو يكون إما لدليل مرجوح بالنسبة إلى ما خالفه، أو لدليل مساوي له، قال المرداوي: "واعلم أن الوارد عن الأصحاب إما وجه وإما احتمال وإما تخريج".

أما القول: فقلنا أنه يشمل الوجه والاحتمال والتخريج، وقد يشمل الرواية، وهو كثير في كلام المتقدمين.

أما ظاهر المذهب: فقلنا أنه أيّ المشهور في المذهب وذلك بعد أن احتمل أمرين.

*إذا أطلق (**الشيخ**): يريد به المتأخرون موفق الدين بن قدامة صاحب المغني، أما ابن قندس [في حواشي الفروع] فيطلقه على شيخ الإسلام ابن تيمية.

* أما (**الشيخان**): فيراد بهما الموفق بن قدامة ومجد الدين بن عبد السلام بن تيمية.

* أما إذا قيل (**شيخنا**): إذا أطلقها ابن عقيل وابن الخطاب فيريدون به القاضي أبي يعلى، وإذا أطلقها ابن القيم وبن مفلح فيريدون بها شيخ الإسلام ابن تيمية، وإذا أطلقها عبد الرحمن بن جاسم فيريد بها مفتي الديار السعودية الشيخ محمد بن إبراهيم آل شيخ.

* أما (**القاضي**): فيراد به محمد بن الحسين بن الفراء الملقب بأبي يعلى، أما المتأخرون كصاحب الإقناع والمنتهى فيريدون به علا الدين المرداوي المتوفى سنة ٨٨٥هـ.

* أما (**الشارح**): فإذا أطلق فيراد به شمس الدين عبد الرحمن بن قدامة بن أخي موفق الدين.

أما (**الشرح**): أي شرح المقنع المسمى الشرح الكبير أو الشافي لشمس الدين بن عبد الرحمن بن أبي عمر محمد بن أحمد بن قدامة المقدسي المتوفى سنه ٦٨٢هـ.

* أما إذا أطلق (**الوزير**): فهو يحي بن هبيرة المتوفى سنة ٥٦٠هـصاحب كتاب الإفصاح عن معاني الصحاح.

الحنابلة يصطلحون على ترتيب كتبهم بالبدء بالعبادات، ثم المعاملات، ثم المناكحات، ثم العقوبات والكفارات، ثم القضاء والدعاوى والبينات.

أما طبقات الحنابلة:

فالطبقة الأولى: هم أصحاب أحمد وهو من روى عنه حديثا أو مسألة أو حكاية.

الطبقة الثانية: أصحاب ⇦أصحاب أحمد.

الطبقة الثالثة: أصحاب ⇦أصحاب ⇦أصحاب أحمد، ومنهم عمر بن الحسين الخرقي.

الطبقة الرابعة: هم أصحاب ⇦أصحاب⇦أصحاب⇦ أصحاب أحمد.

الطبقة الخامسة: هم أصحاب⇦ أصحاب⇦ أصحاب ⇦أصحاب⇦ أصحاب أحمد، ومنهم القاضي أبو يعلى.

الطبقة السادسة: أصحاب ⇦أصحاب ⇦أصحاب ⇦أصحاب⇦ أصحاب⇦ أصحاب أحمد.

أئمة الحنابلة: أبو يعلى، ابن عقيل، ابن حامد، ويُطلِق العلماء على أصحاب هذه الطبقات إما المتقدمين وإما المتوسطين وإما المتأخرين، **والمتقدمون هم: من** القاضي أبو يعلى فما فوقه ابتداء من شيخه الحسن ابن حامد إلى الجماعة وهم: أبو طالب أحمد بن حميد المشكاني المتوفى سنة ٢٤٤ه، إبراهيم بن إسحاق إبراهيم الحربي المتوفى سنة٢٨٥ه، وحرب ابن إسماعيل بن خلف الحنضلي الكرماني المتوفى سنة٢٨٠ه، وعبد الملك بن عبد الحميد بن ميمون الميموني المتوفى سنة ٢٨٤ه، وصالح بن الإمام بن أحمد بن حنبل المتوفى سنة ٢٦٦ه، وعبد الله بن الإمام أحمد بن حنبل المتوفى سنة ٢٦٠ه، وحنبل بن إسحاق بن حنبل ابن عم الإمام أحمد المتوفى سنة ٢٦٣ه.

والمتوسطون: فأولهم محمد بن الحسين الفراء أبو يعلى الشهير بالقاضي المتوفى سنة ٤٥٨ه، ومنهم الوفاء ابن عقيل المتوفى سنة٥١٣ه، ومنهم الوزير يحيي بن هبيرة المتوفى سنة ٥٦٠ه، وعبد القادر الجيلان المتوفى سنة ٥٦١ه، وموفق الدين عبد الله بن محمد بن قدامة المتوفى سنة ٦٢٠ه، ومجد الدين أبو البركات عبد السلام بن تيمية المتوفى سنة ٦٥٢ه، وتقي الدين شيخ الإسلام أحمد بن عبد الحليم بن تيمية المتوفى سنة ٧٢٨ه، ومحمد بن مفلح صاحب كتاب الفروع المتوفى سنة ٧٦٣ه.

المتأخرون: أولهم أبو الحسن علاء الدين المرداوي المتوفى سنة ٨٨٥هصاحب كتاب الإنصاف، ومنهم يوسف بن حسن بن المبرد صاحب كتاب المغنى لذوى الإفهام عن الكتب الكثيرة في الأحكام المتوفى سنة٩٠٩ه، وشهاب الدين أحمد بن عبد العزيز بن علي المعروف بأبي النجار المتوفى سنة٩٤٩ه، وموسى بن أحمد الحجاج صاحب كتاب الإقناع لطالب الانتفاع وزاد المستنقع في اختصار المقنع والمتوفى سنة ٩٦٨ه، ومنصور بن يونس البهوتي المتوفى سنة ١٠٥١هوهو أيضا مشهور، هذا ما تيسر لنا الحديث عنه هذا الإمام الجليل، ومن أراد الاستزادة فليرجع إلى كتب الطبقات والتراجم، فضلاً عن كتب تاريخ الفقه الكثيرة التي أشرنا إلى بعض منها].

* الفقه في عصر الجمود والتقليد وسد باب الاجتهاد: ونوجز الحديث في ثلاثة مباحث:

العوامل التي أدت بالفقه إلى الجمود والتقليد، دور الفقهاء في هذا العصر، التعريف ببعض الفقهاء في هذا العصر.

ومما ينبغي أن نشير إليه أن هذا العصر وإن قيل عنه أنه دور التقليد إلا أنه لا يخلوا من **مجتهد** مطلق أو **مجتهد** مقيد بمذهب معين يظهر من حين لآخر، أمثال ابن قدامة وابن تيمية وابن كثير وابن حجر وغيرهم.

العوامل والأسباب التي أدت بالفقه إلى الجمود والتقليد: أجمُل منها:

١. أن المذاهب الفقهية قد استقرت فليس للناس حاجة إلى إستحداث مذاهب جديدة.

٢. أن شروط الاجتهاد التي وضعها العلماء قد تشددوا فيها، فلا تنطبق على أحد لأن الهمم قصرت عن تحصيل الاجتهاد، واتهمَ الفقهاء أنفسهم بالضعف والقصور، وظنوا أنهم غير قادرين على أخذ الأحكام من مصادرها الأصلية من كتاب الله وسنة رسول ﷺ.

٣. أنه دخل العلم كثير من مدعي الاجتهاد، لذا رأى العلماء قفل باب الاجتهاد، لئلا يفتي بالدين من ليس من أهل الفتوى، فيدخل فيه من الأحكام من لا يَعتمد على نص من كتاب الله وسنة رسوله ﷺ.

٤. الدعاية القوية التي قام بها أنصار المذاهب المتبَّعة لمذاهبهم، حيث تعصبوا لها ودعوا الناس إليها دون السعي لتحصيل العلم من مصدره وهو كتاب الله وسنة رسوله ﷺ واجتهاد في استنباط الأحكام منها بعد أن كان مريد الفقه يشتغل أولا بدراسة كتاب الله ورواية السنة صار في هذا الدور يتلقى كتب إمام معين، ويدرس طريقته التي استنبط بها ما دوَّنه من أحكام، حتى قال بعضهم: "كل آية أو حديث يخالف ما عليه أصحابنا فهو مؤول أو منسوخ" [كما ذكر ذلك صاحب أنيس الفقهاء في تعريف الألفاظ المتداولة بين الفقهاء].

ومن صور التعصب أن أحدهم إذا وُلي إدارة منصب من المناصب كرئاسة القضاء فإنه لا يولي إلا من من كان على مذهبه، ومن صور التعصب أيضا أن بعض أصحاب المذاهب نظر إلى أصحاب المذاهب المخالفة له وكأنه يتعامل مع أصحاب الملل الأخرى من غير المسلمين، فلا يزوجهم ويتزوج من بناتهم، ولا يصلي خلفهم، يقول القونوي ما نصه: "إذا تشفع حنفي المذهب قال القاضي الإمام الحسن الماتريدي: "فإنه يعزر أشد التعزير حتى يترك المذهب الردي ويرجع إلى المذهب السديد" قال شيخ الإسلام عطاء بن حمزة رحمه الله: "الثبات على مذهب أبي حنيفة رحمه الله خير وأولى له" [كذا في مجمع الفتاوى في أول باب الشفعة نقله الحجوى في كتاب الفكر السامي في تاريخ الفقه الإسلامي]

وإن كان هذا السبب ولله الحمد زال، بل نحسبه أنه انعدم لكن ربما ساد في عصر أو في وقت من الأوقات.

٥. تحاسد العلماء وتزاحمهم وتجادلهم فيما بينهم، بل ذهب بعضهم إلى أن يفتي بنقيض ما أفتى به الآخر، لا أنه رأى أن الفتوى خاطئة، وإنما والعياذ بالله يدفعه الحسد إلى هذا العمل، لذا لجأ كثير من العلماء إلى أن يذكر من أفتى بذلك من المتقدمين لئلا ينتقد من قبل هؤلاء، ونحسب أن هذا قليل وليس بالكثير، لكنه يورده العلماء في هذا المجال.

في منتصف القرن الرابع الهجري بدأ الضعف والتفكك يدب في أوساط الدولة العباسية فكان الأمويون في الأندلس، والفاطميون بشمال إفريقيا، والإخشيدون في مصر، ثم بعد ذلك بدأت هجمات التتار على الممالك الاسلامية في شرق الدولة حتى أصبح في بعض الأزمان لا سلطان للدولة العباسية إلا على بغداد، حتى سقطت في أيدي التتار سنة ٦٥٦هـ، كل هذا التفرق والتشتت أثرَ ولا شك على الفقه والفقهاء، حيث كان الفقهاء أيام عز الدولة الإسلامية هم القادة وأصحاب الكلمة وأهل الحل والعقد، وبأيديهم المناصب، والخلفاء يقربونهم ويدنونهم ويسمعون منهم، فلما ساءت الحال وأصبح المسلمون في حالة يرثى لها ولم يعد للخلفاء و السلطة كبير وزن عاد هذا على العلماء ورجال الفقه فشُغلوا بتدبير معاشهم والسعي وراء قُوْتِهم بعدما أن كانوا مكفولين بما يقدمه لهم الخلفاء من هدايا و أعطيات، كما شُغل الفقهاء والعلماء كغيرهم من سائر أفراد المجتمع بتحقيق الأمن لأموالهم وذرياتهم وأعراضهم، إذ الدولة لم تعد لديها القدرة على حفظ الأمن في المجتمع، ناهيك عن أن يكون للدولة سلطة على من ليس من أهل الفتوى.

الفقهاء في هذا العصر ممكن أن ينقسمون إلى قسمين:

١.قسم حصروا جهدهم في جمع فتاوى أئمتهم وفي تعليل أحكامهم والاستدلال لما قاله سلفهم، ومحاولة الترجيح بين الأقوال المختلفة في المذهب، وترجيح أراء مذهبهم على المذاهب الأخرى، وإبطال رأي الغير، وبهذا قوي دافع التعصب، **والميزة الوحيدة لهذا الدور هو تنظيم وترتيب الفقه المذهبي ووضع قواعده.**

وأول من وضع قواعد الفقه هو **الكرخي في أصوله،** ثم الدبوسي في كتابه " تأسيس النظر"، ثم النسفي المتوفى سنة ٥٣٧هـ في كتابه "القواعد شرح قواعد الكرخي"، ثم "الفروق" لأسعد محمد الكراديسي المتوفى سنة ٥٧٠هـ، ثم "الأشباه والنظائر" لابن النجيم المتوفى سنة ٩٧٠هـ، و"الفروق" للقرافي المالكي و"الفروق" للجويني الشافعي و"تخريج الفروع على الأصول" للزنجاني الشافعي، و"قواعد الأحكام في مصالح الأنام" للعز الدين عبد السلام الشافعي و"القواعد النورانية" لابن تيمية و"القواعد" لابن رجب.

٢.قِسْم آخر حاولوا الخروج عن رقة التقليد والسعي وراء الدليل من كتاب الله وسنة رسوله ﷺ فلقي العنت والإنكار من قبل المقلدين الذين يرون قفل باب الاجتهاد، حتى أن بعضهم لقي من القول الرديء والهجوم العنيف بل والاستعداء من بعض الحكام ليسجنوهم ويضربوهم، فهذا ابن حزم أوذي من قبل وشايات العلماء به إلى الحكام، وما كان يدفعهم إلى كراهيته إلا الحسد والتعصب الأعمى والبقاء على ما ورثوه من أسلافهم، ومن بعده ابن تيمية وابن القيم، فسجنوا وأوذوا، حتى مات ابن تيمية رحمه الله وهو في السجن.

ودور التقليد وسد باب الاجتهاد امتد فترة طويلة، فهو أطول الأدوار وإن كان لا تزال آثاره مستمرة

حتى اليوم، إذ يرى كثير من طلاب العلم أن باب الاجتهاد يجب أن يبقى موصدا مهما احتاج الناس إلى الفتاوى فيما جد، إذ ليس هناك أحد مؤهل لأن يجتهد، ناسين بأن الله تعالى تعبدنا بقوله وسنة رسوله ﷺ، ولم يتعبدنا بقول أحد من الناس أو فعله، كما يوجد بعض من ليس له باع في العلم يرى فتح باب الاجتهاد على مصراعيه، وهذا غلط وسبب للوقوع في الضلال والبعد عن شريعة الله، فلابد لمن رام الاجتهاد أن تتحقق فيه شروطه من العلم بالأدلة الشرعية، وكيفية أخذ الأحكام واستنباط الفقه منها، فلا الذين يقولون بغلق باب الإجتهاد أصابوا، ولا الذين يرون فتحه على مصراعيه أصابوا، والله المستعان.

نعرف ببعض الفقهاء في هذا الدور فمنهم:

١.**ابن حزم الأندلسي:** [تنظر ترجمته في طبقات السنود]، وهو / علي بن أحمد بن سعيد بن حزم الظاهري، أبو محمد، عالم الأندلس في عصره، وأحد أئمة الإسلام، ناصر السنة، ولد في قرطبة ٣٨٤هـ وكانت له ولأبيه من قبله رئاسة الوزارة، فزهد فيها وانصرف إلى العلم والتأليف، كان رحمه الله من صدور الباحثين فقيهاً حافظاً يستنبط الأحكام من الكتاب والسنة، بعيدا عن المصانعة، وانتقد كثيرا من العلماء والفقهاء فتمالؤوا على بغضه وحذروا السلاطين منه، ونهوا عن الدنو منه، فطرده أمراء الأندلس، فرحل إلى بادية لبلة في الأندلس وتوفي فيها سنة ٤٥٦هـ، وقد ألف رحمه الله تأليف كثيرة بلغت نحو "٤٠٠ مجلد" تشتمل على قريب من "ثمانين ألف ورقة" وكان يقال إن لسان ابن حزم وسيف الحجاج شقيقان، وأشهر مؤلفاته: **كتاب "المحلى"** [وهو كتاب مطبوع في ثلاثة عشر مجلد طبعة مصرية بتحقيق أحمد شاكر]، وكتاب "**الفصل في الملل والنحل**" وكتاب "**الأحكام في أصول الأحكام**" في أصول الفقه وهو ملخص إبطال القياس.

٢.**الكاساني:** وهو / أبو بكر بن مسعود بن أحمد علاء الدين الكاساني، ملك العلماء، من أئمة الحنفية بدمشق أيام الملك نور الدين، وهو صاحب **كتاب بدائع الصنائع في ترتيب الشرائع**، توفي رحمه الله في حلب ٥٨٧هـ، وقد زوجه الشيخ محمد بن أحمد السمرقندي ابنته فاطمة وكانت من حسان النساء، فقيهةً عالمةً صالحةً تحفظ كتاب أبيها "تحفة الفقهاء"، وقد طلبها جماعة من ملوك بلاد الروم، فلما صنّف الكساني كتابه "بدائع الصنائع في شرح تحفة الفقهاء" زوجه ابنته فقال الناس: "شرح تحفته وتزوج ابنته".

٣.**ابن رشد:** هو / محمد بن أحمد بن محمد بن رُشد الغرناطي الأندلسي، أبو الوليد، الشهير بالحفيد، الفقيه الأديب الفيلسوف الطبيب، حُكِيَ عنه أنه لم يدع النظر والقراءة منذ عقل إلا ليلة وفاة والده وليلة زواجه، وأبوه عالم من علماء المالكية، له شرح على سنن النسائي، وجده عالم محقق معترف له بصحة النظر وجودة التأليف، زعيم فقهاء المالكية، محمد بن رشد الحفيد ولد سنة ٥٢٠هـوتوفي سنة ٥٩٥هـفي مراكش، ونُقل إلى قرطبة حيث دفن هناك، وقد درّس رحمه الله الأصول وعلم الكلام وكان

يُفزع إليه في الطب كما يُفزع إليه في الفتوى في الفقه، وقد أُمتحن بالنفي وإحراق كتبه أيام يعقوب المنصور، حيث وشي به إليه ثم عفا عنه ولم يعش بعد العفو إلا سنة، وله مؤلفات عدة تنوف عن الستين منها "**بداية المجتهد ونهاية المقتصد**" من جزئيين في مجلد واحد، وكتاب "**الكليات في الطب**"، و"**تهاف التهاف**" في الرد على الغزالي.

٤.**موفق الدين بن قدامة:** وهو/ عبد الله بن أحمد بن محمد بن قدامة المقدسي الحنبلي، أبو محمد موفق الدين، من أكابر الفقهاء في المذهب الحنبلي، ولد في شعبان سنة ٥٤١هـفي بلدة الجماعيل من قرى نابلس قريبا من بيت المقدس في فلسطين، وتعلم في دمشق، وأخذ عن أبي المكارم بن هلال وأبي المعالي بن صابر وغيرهم، ورحل إلى بغداد وهو في العشرين من عمره، فأقام مدة يسيره عند الشيخ عبد القادر الجيلاني، وقرأ عليه مختصر الخرقي، ثم توفي عبد القادر الجيلاني قبل أن يكمل ابن قدامة سنة في أخذ العلم عنه، فانتقل إلى أبي الفتح بن منى فقرأ عليه المذهب، والخلاف، والأصول، ولبث في بغداد أربعة سنوات، ثم عاد إلى دمشق وأخذ في التعليم ونشر العلم والتأليف، وقد توفي رحمه الله في دمشق يوم السبت يوم عيد الفطر سنه ٦٢٠هـ، وكان رحمه الله زاهدا ورعا كثير الحياء، متواضعا محب المساكين، حسن الأخلاق، جواد سخيا، كثير العبادة، قال عنه شيخ الإسلام ابن تيمية: "ما دخل الشام بعد الأوزاعي أفقه من الشيخ موفق بن قدامة"، له تصانيف كثيرة ومؤلفات في الحديث واللغة والزهد والرقائق والتوحيد والفقه، وأكثر تصانيفه على طريقة المحدثين مشحون بالأحاديث والآثار.

من مؤلفاته: "**العمدة**" و"**المقنع**" و"**الكافي**" في الفقه، **والمغني شرح مختصر الخرقي** في تسع مجلدات وأكثر، طبع طبعة أخرى، "**وروضة الناظر وجنة المناظر**" في أصول الفقه و "**لمعة الاعتقاد في الهادي إلى سبيل الرشاد**" في التوحيد، إلى غير ذلك من الكتب.

هذا ما تيسر لنا في هذه الحلقة، وأدعو لمن استفدنا من علمه وأخص كتابين استفدت منهما كتاب معالي الشيخ سليمان أبا الخيل وهو كتاب "المدخل في دراسة الفقه الإسلامي" وأيضا كتاب "تاريخ الفقه الإسلامي" لفضيلة الدكتور ناصر بن عقيل الطريفي، أدعو أبنائي وبناتي للاستفادة من هذين الكتابين، كما في غيرهما من الكتب ككتاب الدرعان وغيرها من الكتب التي أشرت إليها.